وصف البرك القصور في الشعر الحمادي

(ابن حمديس و القلعي أنمودجين)

أ.ابن عدي نورية
جامعة تلمسان

عندما نتحدث عن الوصف قد يتبادر إلى أّذهاننا ذلك الوصف الحسي المباشر للطبيعة في روائع قصائد الشعر الجاهلي التي انصبت في هذا القالب لتعالج طريقة البدو القدماء في التعامل مع البيئة المحيطة بهم ، وتنقل لنا بسذاجة طرائقهم الخاصة وطقوسه م التي انصهرت في أوزان أشعارهم التي لازالت مغرية بفعل صورها الحية الملموسة وإيقاعاتها الرنانة .

وليس هذا المقام مقام حديث عن الشعر الجاهلي وقد تفردت له مؤلفات خاصة وإن ما يجب أن نهتم له في مقامنا هذا هو ذلك الارتباط الوثيق بين الشاعر وبيئته فهي لا تنفك عن مطاردته كلما حاول الانسلاخ عنها ،لأنها مهد أفكاره وملجأ عواطفه ،ولأنّ الشعر في واقع أمره مرآة المرء كما قال أر سط و فهو في أغلب الأحيان محاكاة للواقع،إذ ينقل لنا ملابسات بيئته في قالب فني جميل

إنّ البيئة التي عاش فيها شعراء الدولة الحمّادية قد تزينت غداة منتصف القرن الخامس الهجري بألوان الحضارة الجديدة التي بدأت تستقطب كل أنواع العلوم والآداب .

ونحن نزداد يقينا أ نّ ثراء الساحة الأدبية منوط بجهود الأمراء الحماديين وبخاصة المنصور الحمادي ، حيث أثمرت هذه الجهود بعد النهضة العلمية والأدبية التي صنعت عصر بجاية الذّهبي ، وذلك على الرغم من تعثر الحياة السياسية جراء الفتن الضاربة بالبلاد والخلافات الدائمة بين أمراء دولة بني حماد.

ففي هذا الجو برزت ظاهرة وصف القصور وترعرع ت أمام رغبة كبيرة في استعراض القوة والسلطان عند الملوك الحماديين ، وهذه ظاهرة قديمة في الشعر العربي وغيره ، إذ تعود جذورها إلى عهد ملوك الروم وإيوان كسرى العظيم.وهي على توغل جذورها في القدم لا تزال محافظة على بع ض سماتها كالدقة في التصوير والمبالغة في الوصف والميل إلى استعمال لغة الألفاظ الفخمة والموحية ؛كما أنها غالبا ما تتخلل قصائد مدح الملوك .

ولعل ما يسترع ي انتباهنا هو أنّ عهد المنصور كان زاهر ا كعهد أبيه ، إذ ظلّت ا لشّعراء تؤم أرضه مستنجد ة به أحيانا ومسترزقة أحيانا ومن الشعراء الّذين قصدوا بجاية على عهده الشاعر الصّقلي ابن حمديس الّذي أبدع ما شاء في وصف الأبنية والتماثيل–والقصور والبرك والنوافير والنواعير والحدائق.وكلّ ذلك في حلاوة لفظ ورقة أسلوب ودقة صنعة.

كان ابن حمديس أديبا يعيش على الأدب ويتكسب بالشعر واسم ه الكامل عبد الجبّار ابن حمديس، ولد بجزيرة صقلية في 477 عرف في بيئته مند حداثته بمعالجة القريض.نزل باشبيلية يمتدح فضل المعتمد ابن عباد الذي ظلّ يتقلب في نعم الملك حقبة من الدهر حتى أنزله ابن تاشفين عن دسّته، ونفا همن ملكه إلى أغمات بمراكش.

قال المعتمد صاحب اشبيليّة وقد دخل عليه في سجنه بناته يوم العيد في أطمار بالية:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطأن في الطّين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا [1]

تبع ابن حمديس صاحبه وليّ نعمته إلى منفاه، فمات الملك بعد أربع سنين من نكبته وأقام الشاعر في المهدية قاعدة إفريقية وقد تأكد من قصائده في مدح بني

زيري بالمهدية وبني حمدون وزراء بني حماد ببجاية أنه ظل يتنقل بين مدن الشّمال الأفريقي [2] وقد اتّفق أهل التراجم أنه توفي سنة 27 5هـ

اتّصل ابن حمديس بالمنصور وتصدّر عنده مقدّمة الوصّافين البارعين وتألّق في وصف القصور المشيّدة على عهده :

أعمر بقصر الملك ناديك الّذي أضحى بمجدك بيتا معمورا[3]
قصر لو أنك كحلت بــنوره أعمى لعاد إلى المقام بصيرا

وفي موضع آخر :

أعليت بين النّجم والدبران قصرا بناه من السعادة بان[4]
فضح الخورنق والسدير باسمه وسما بقمّته على الإيوان[5]

فالبيتين الأوّلين هما من رائيته التي نظمها في وصف قصر المنصور ، وقد استهلها بفعل الأمر " أعمر"مقدما التهاني للمنصور على حوزته لهذا القصروقد بناه بعزم وجدّية.وأسلوب الأمر عاد ة ما يستعم ل للطلب وإن كان مقام الشاعر هنا يستدعي التلطف لأنه يخاطب المنصور . وينتقل الشاعر مباشرة إلى ذكر مكانة القصر رافعا من شأنه أمام قصور بني ساسان:الخورنق والسدير والإيوان ،والواقع أنّ ابن حمديس واسع الثقافة في مجال القصور،لأنّه عاش فترة شبابه في الأندل س، ثم تنقل بعدها في أماكن عدة قبل أن ترسو له قدم في المغرب الأوسط ،ولعله زار خلال أسفاره قصور بني ساسان .ليستطيع بعد ذلك أن يقول:

نسي الصبيح مع المليح باسمه وسما ففاق خورنقا وسديرا
لو أنّ بالإيوان قوبل حسنه ماكان شيئا عنده مذكورا
أعيت مطالعه على الفرس الأولي رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا لملوكهم له شبيها ونظيرا

ويبدو من البيت الثامن أنّ ابن حمديس قد تجوّل برفقة المنصور في بهو القصر وحدائقه كما أطلعه بنفسه على غرف القصر وتصاميمه الفريدةالتّى انبهر

لها الشّاعر فتألقت نفسه وانشرح صدره لتتفتّح مشاعره على هذا الجمال الذّي أرست معالمه أبواب القصر الضّخمة وقد احتوت حلقاتها على أسود مكشّرة عن أنيابها تبدو وكأنّها تحرس القصر.

أذكرتنا الفردوس حين أريتنا غرفا رفعت بناءها وقصورا
أبصرته فرأيته أبدع منظرا ثم انثنيت بناظري محصورا
فضننت أني حالم في جنّة لمّا رأيت الملك فيها كبيرا (6)

وفي الأبيات التي تلي وصف دقيق لأبواب القصر وقد عضت على حلقاتها أسود مكشّرة على أنيابها تبدو وكأنّها في مشهد حي :

عضت على حلقاتهن ضراغم فغرت بها أفواهها تكشيرا
فكأنّها لبدت لتهصر عندها من لم يكن بدخولها مأمورا

وتجول الخواطر مطلقة أعنّتها لترسو أمام بهو ساحة مرخمة وكأنّها فرشت بالذّر لت؟ل مضيئة حتىٍ في لجج الظلام.

تجري الخواطر مطلقات أعنّة فيه فتكبوا عن مداه قصورا
بمرخّم السّاحات تحسب أنّه فرش إليها وتوشّح الكافورا
ومحسّر بالذر تحسب تربه مسكا تضو ع نشره وعبيرا

ويستمر الشاعر في وصف كل شيء تقع عينه عليه وإن بالغ في ذلك أحيانا، غير أنّه حين توالي الصور الجميلة لانكاد نشعر بوزن المبالغة التّي تتستّر بلين وراء جمال الوصف وزخرف الخيال.

يعود ابن حمديس إلى وصف الأسود ،وكأن الشعر قد اكتم ل في دهنه قبل أن يكتمل في الواقع، لأن الشعر مقيد بالوزن والقافية في حين تسبح الصور بحرية ،ولهدا يعود بتواضع وأدب ليعطي منظرالأسود حقه من الوصف .

أسد كأن سكونها متحرّك　　في النّفس لو وجدت هناك مثيرا

وتذكّرت فتكاتها فكأنّما　　أقعت على أدبارها لتثورا

وتخالها والشمس تجلو لونها　　نارا وألسنها اللواحس نورا[7]

يسترسل الشاعر في توشيح قصيدته بالتشبيهات والصور الجميلة ليزيد من قيمة القصر ومحتوياته وفوق ذلك فهو يريد أن يجعل منه قصرا غير كلّ القصور.إذ يقف كما يقف المغربي الموغل في حبّ وطنه، أمام بهو الحديقة الأريضة برقّة في الشعور وقوّة في الملاحظة ليصف أشجار الروضة الغناء فيما ينيف عن الثمانية أبيات وهو لايزال على حاله مفتتنا بالجمال والعظمة فلا يفتأ يتغنّى بمحاسن القصر وبدائع صنعه، وحقّ له أن يتعبّد للجمال السالب للألباب الذّي يستهوي القلوب سيما قلوب الشعراء أمثاله وهو بكلّ هذه الأوصاف البديعة.

وينتهي في آخر القصيدة كما استهلها؛بمخاطبة المنصور الحمّادي في تواضع وأدب وإهدائه هذه القصيدة التي خلت من كلّ تملّق أو خنوع أو استعطا ف مع أنّها ربّما نظمت للتكسّب.

ومن هنا كان شعر ابن حمديس مرآة صافيه تجلّت فيها قدرته الأدبيّة فهو عفيف اللفظ نبيل الفكرة، لغته واضحة وأسلوبه مشرق إذ تألّق في وصف جمال الطبيعة ولذّات الحياة، وعجائب الكون، فوصف النهر والزهر والصيد والخيل والليل و قصور الترف ومجالس الطرب، وكل ذلك يرسمه بلفظ أنيق، وتصوير دقيق وعبارة بيّنة. (8)

إن الحوادث الاجتماعية السياسية التي عاشها ابن حمديس ووقف على تقلّبايها وسخريّتها من بني البشر سعت إلى تهذيب خياله وفكره المنبثق من عمق الأندلسي العاشق لحلاوة الحياة. وقد جعلته حياته الخاصة بالأندلس ثمّ بالمغرب العربي، مميّزا في شعره، بعيد الغور في تفكيره وتخيّلاته، إ ذ لم يتردد لحظة واحدة في حبّه وإخلاصه لوطنه الجديد الذّي احتضن غربته، فراح يجول بنا ظره في أرض

الجزائر الناعمة النّاضرة بقصورها الشامخة العامرة وقد لقي الجمال الذي ضنّ أنّه فارقه بفراق الأندلس.

وعلى طريقة الأندلسيّين التي ضمّنها روحه المغربيّة الأصيلة وصف لنا قصر المنصور بجمال ودقّة في التصوير، وحلاوة في المعنى... فجاءت اثر ذلك أبيات القصيدة مشدودة البناء، غنيّة بالصور مفعمة بالتشبيهات، إذ ترددت كثيرا على مسامعنا أداة التشبيه " كأنّما "وذلك لتحقيق المقاربة وكأنه يتطلّع إلى فكرة جليلة وهي " فكرة الماهية " من جهة، ومن جهة أخرى يحاول إعطاء الأشياء الموجودة بالقصر قيمة فنيّة كبيرة.

ولابن حمديس قصائد تخترق صمت النفوس من دون ما ستر أو حجاب فهو يوفّق دائما في اختيار الألفاظ والعبارات المناسبة لوحدة الشّكل في مجموعه، واختلافه في تفصيلاته، أمّا أسلوبه ففيه صبغة فنيّة شخصيّة، وهو فضلا عن رصانة ألفاظه من النظم المطبوع الّذي يحدث أثرا عميقا في النفوس.

وهو على مابه من صناعة في تركيب الصور واحتوائه على كثير من المحسّنات اللّفظية سلس رقيق خاصّة عندما ينعت زينة القصور في هذه الحقبة البعيدة من الزّمن، فينقل لنا حضارتها وعمرانها على اختلاف صورها ومظاهرها وكأنه مصوّر صحفيّ بارع.

وعلى هذا النحو يصف لنا قصرا آخر من قصور المنصور اسمه" النجم " بناه المنصور ببجاية: [9]

قصر يقصر وهو غير مقصر   عن وصفه في الحسن والإحسان
كأنّه من ذرّة شفّافة   تعشى العيون بشدّة اللمعان
لا يرتقي الراقي إلى شرفاته   إلا بمعراج من اللحظان
عرّج بأرض الناصريّة كي ترى   شرف المكان وقدرة الأمكان

إنّ الغرض الرئيس من هده القصيدة هو الوصف،وهي كسابقتها في الغرض والمناسبة ،حيث يصف فيها قصر"النجم"ببجاية، وق د بدت رغبة صاحبها في الأساليب الجديدة، والمعاني الحضريّة من الأساليب والمعاني القديمة إذ أبد ل من الأسلوب البدوي أسلوبا حضريا صرفا، ونف ر من الألفاظ الوحشية إلى الألفاظ المأنوسة الرقيقة، فما انقطع عن ذكر رياض القصر الغنّاء، فجمال بجاية عنده فوق كلّ جمال وعمرانها دون كلّ عمران.

وإن فاخر الأترج قال له ازدجر حتّى تحوز طبائع الأيمان
لي نفحة المحبوب حين يشمّني طيبا ولون الصبا حين يراني
منى المصبح حين يبسط كفّه فبان كلّ خريدة كبناني [(10)]

المعجم اللغوي :

وما يلفت الانتباه أنّ الشّاعر يستقي ألفاظه من بيئة حضريّة صرف، ولعلّ ذلك يرجع إلى طبعه المائل إلى كل ما هو جميل أو لعلّ كلّ ما كان يحيط به كان جميلا فكان له في محيطه مرعى خصيب:جنائن وارفة الظلال وأنهار تغنّي للقصور فترقص، بدائع وطرائف راح يصوّرها بقلمه، فجاءت لوحات طريفة نادرة. [(11)]

وقد سا ر على خطى البحتري في وصف القصور والبرك، وسع ى ورا ء التّشابيه والاستعارات يتصيدها بأحاسيسه، وقد حاكا هفي ذلك ابن خفاجة، فآف ة الشعراء سيرهم وراء بعضهم كالقوافل على الطرق المعبّدة. [(1 2)]

إن البيئة الحضريّة الّتي احتوت ابن حمد يس قد جعلت من أشعاره الّتي يصف فيها الطّبيعة لوحات فنيّة مرصعة بأنواع الدّر واليا قوت والمرمر وهذ ههي "مجاملة الترف الخالي من كلّ بصيرة إنسانية باطنة على حساب البداوة أو الفطرة الساذجة التّي تحتضن فيها النفس أهون المخلوقات، وتشبّ ع حنينها الدائم إلى التنصل من وثائق البريق المتوهّج النافع، وشواه د الحضارة الماديّة، ولوازم الترف الثقيل الّذي يخلط بين المعايير" [(13)]

كما تصيد ابن حمديس الألفاظ الرّقيقة الملائمة لأجواء القصو ر المترفة مثل:درّة . شفافة شرفاته . اللّمعان . جنّة . غنّاء . فردوسية . الريحان . تبر . نفحة . طيبا . منى . المصبح . سبائك . فضّية....

كما يميل في وصفه إلى إدخال الألوان النّارية التّي تعبّر عن اللّمعان والبريق داخل القصر وخارجه، مثل:درّة . اللّمعان . وتوقّدت . بالجمر . نار لجّها . تبر أحمر . سبائك فضيّة........

إنّ العربيّ وان سرى في نفسه حبّ الجديد، يبقى ابع د الناس عن نسيان قديمه لتمكّن غريزة التقليد في نفسه ثمّ لما يتعلّق بهذا القديم من وشا ئج دينيّة وقومية، فقد كان الشعر الجاهلي والإسلامي ديوان المفاخر والحجّة الّتي لا تقرع في تفسير معاني القرآن الكريم ومعرفة غريبة[14].

ولهدا نلمس عند ابن حمديسُ تأثرا واضحا بالقرآن الكريم من خلال اقتباس معانيه واستعمال ألفاظه:

وضننت أني حالم في جنة لما رأيت الملك فيه كبيرا

وفي موضع آخر :

وفي جنة غناء فردوسية محفوفة بالروح والريحان

والملاحظ أيضا أن المعجم اللغوي للقصيدتين لا يتجد د ولا يتغير ،فهو يكاد يكون نفسه ا ،وذلك لوحدة في الغرض والموضوع ، وإن اختلفت أسماء القصور، لأن المشاهد تتشابه وتتكرر لتعرب عن طريقة موحدة في البناء جعلت الشا عر يدور في دائرة مغلقة ،وإن بدا لنا كل ما بداخله ا جميلا من خلال لجوء الشاعر إلى استعمال الألفاظ المثيرة للقارئ: بنوره ، اشتق ،حسنه ، الفردوس ، الجنان ،الأفلاك ،البلور، عجائب ،سبائك...

والشاعر في محاولته ربط المحسوسات بالملموسات ،يكثر م ن استعمال الألفاظ الفخمة المتسمة بالقوة والجزالة لينقل إلى دهن القارئ مدى روعة المكان وفخامته:الملك ،الجنان ،بمرخم ،رئاسة ،يرتقي ،شرفاته ،بقمته، شرف،صوالجها....

فالمشاهد تتنوع بتنقل الشاعر ،فهناك حركة دائمة ومشاعر متحركة عبر عنها الشاعر بأفعا ل مختلفة : نسي، أدكرتنا ،أريتنا ،انثنيت ، فظننت ،تجري الخواطر ، تحسب ، وتذكرت ، وتخالها ،يؤثر ،وعجبت .

كما أ ورد الأفعال الدالة على الملاحظة ،لأنه يصف لنا ما تق ع عليه عينه ،وإن كان دلك بكثير من المبالغة :

أبصرت . رأيت . تعبر نحوها عيناي . ترى . تريك . تبدو. وإذا نظرت .

ومن هنا بدت بعض المعاني مأنوسة لا تحتاج منا طول تأمل وسعة خيال :

فالمحسنون تزيدوا أعمالهم ورجوا بدلك جنة وحريرا

وفي موضع آخر:

عرج بأرض الناصرية كي ترى شرف المكان وقدرة والإمكان

إن هده الروح التي تسري بين أوصال الكلمات وتبث فيها الحياة لتجعلها تتحرك وتحرك معها أوتار القلوب ،لتنبؤ عن شاعرية صاحبها وقدرته الفائقة في توليد الصور و ابتكار المعاني ،ولاشك في دلك ونحن نعلم أن ابن حمديس قد نظم الشعر مند أيامه بالأندلس ، وهو على كل حال شاعر مكثر .

ولعل هدا ما يفسر حضور الطبيعة في قصائده، فهو يرنو إلى الطبيعة كلما ضاقت به أوزان شعره فيستمد من قواها نفسه الطويل في النظم والإبداع ،فكثيرة هي الألفاظ التي تعبر عن الطبيعة:النجم . الريحان . نار . الماء . الطيور . خرير . السماء . الثمرات . الأغصان . روضة .

من الواضح أن جل هده الألفاظ دلت على الطبيعة من ناحيتها الخضراء الباسمة فحسب، فهدوء القصر قد وفر للشاعر جوا من الراحة النفسية التي انعكست بجلاء على فضاء القصيدتين .والقارئ بعد دلك يلتمس فيها إل ى جانب قيمتها الفنية قيمة تاريخية كبرى كونها تؤرخ لفن العمران على عهد الحماديين ،وتنقل لنا طريقتهم الخاصة في النقش على الخشب ونحث التماثيل وما إلى دلك مما تزخر بهقصور الأمراء والملوك .

الخيـــال :

إن خيال ابن حمديس فرس جامح لا حدود لها ، فهو يسمو به إلى منازل القمر ومواطئ النجوم ، ملاحقا أفكاره وهي محلقة هائمة ،أو يتوغل به في أعماق نفسه الشاعرة ليلامس هناك بقايا صور لم تكتمل أطيافها مند أيامه بالأندلس ، حتى أنك لتحس بروحه الأندلسية بل وتراها تتسلل إلى خيالاته بلين ولطف كسيل هادئ من الماء يسري بين المروج .

ودلك من خلال ما يتصيد همن صور جميلة يعرضها في أبهى حلة ، معتمدا على التشبيه كأسلوب بلاغي ، وما يشتق عنه من استعارة ومجاز ،فيحرك المشاهد والمشاعر:

أسد كأن سكونها متحرك في النفوس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكانها فكأنما أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها نارا وألسنها اللواحس نورا

فهدا خيال ابتدأ فيه ابن حمديس بتحريك المشهد الدي بدأت صوره تتحرك في مخيلته،فهو يرى الأسود تتحرك رغم سكونها ، فكأنها جالسة تستعد لتثور في أية لحظة ، ودلك لحسن صنعها وإتقان نقوشها ، أما إذا سطعت أشعة الشمس على ألوانها الفضية والذهبية،فتبدو كنار متأججة يسطع النور من ألسنها .

ومن مبالغة ابن حمديس في الوصف تكراره للأداة " كأن " ، إلى جانب استعماله لأفعال المقاربة :تخال . تحسب . تضن .

الإيقـــاع :

اختار الشاعر في لقصيدتيه بحر الكامل وهو من البحور الطويلة الملائمة لغرض الوصف وما يصحبه من مبالغة وخيال .

كما اختار "النون" رويا لإحدى قصائده وفي الثانية اختار" الراء" وهما حرفان يتكيفان مع المواقف المختلفة ،وقد صاحب كلاهما كثيرا من الشعر العربي قديمه وحديثه،فالراء يصلح للتعبير عن المشاعر فيتمدد بتمدّدها ولايضيق بتقلب المشاعر وتبدل العواطف،فيصحب الشاعر وهو يخاطب المنصور ثم وهو يتنقل بين أرجاء القصر ليقارنه بقصور الدنيا ، ويصف أبوابه وساحاته ويقف بتمعن أمام تماثيل الأسود، ثم يطلق عنان أبصاره فيصف لنا ما رآه من أشجار وثمار ،وينتهي به إلى المدح .

ومعظم هذه القصور الّتي كانت في مناعة الحصون قضى عليها الزحف الهلالي أواسط القرن الخامس الهجري وقد رثاها لنا إذ ذاك الشاعر والمؤرّخ الجزائري أبو عبد الله محمّد بنعلي بن حمّاد 548 . 628 إذ قال رحمه الله [15]

إن العروسين [16] لارسم ولا طلل فانظر ترى ليس إلا السّهل والجبل
وقصر بلارة [17] أودى الزمان به فأين ما شاد منها السادة الأوّل ؟
قصر الخلافة أين القصر من خرب غير اللّجين وفي أرحابها زحل
وليس يبهجني شيء أسرّبه من بعد أن نهجت بالمنهج السبيل
وما روي الكوكب [18] العلويّ معتصم وقد عرى الكوكب التغيير والتدل [19]
وقد عفا قصر حماد فليس له رسم ولا أثر باق ولا طلل
ومجلس القوم قد هبّ الزمان به بحادث قلّ فيه الحادث الجلل

وانّ في القصر قصر الملك معتبرا لمن تغرّ به الأيّام والدول
وما رسوم المنار الآن ماثلـة لكنّها خبر يجري بها المثل
حتّى المصلّى امّحت آياته وعفت إلا جدارا وما طلّت به الطلل
كرجعك الطّرف كانت كلّ آبرة [20] فما تراه كذاك العمر والأجل [21]

ولمّا جاء دور الأسبان قضوا على البقيّة الباقية من هذه الحضارة الشامخة والمدنية البادخة فيما استولوا علي هـمن القطر الجزائري وألحقوه بما فعلوه بأرض الأندلس... [22]

يبدو أنّ وصف القصور ومحتوياتها كان أمرا سائدا على عهد ابن حمديس جريا على أسلوب المتقدّمين من الشّعراء المجيدين، إذ حصلنا على مقطوعة فنّية في وصف فوّارة للشّاعر المغربي القلعي الأصم الّذي عاصر ابن حمديس وعاش في بجاية النّاصريّة مدّة ثم ارتحل إلى مصر طلبا للرزق والمال غير أنّه لم يأنس بأهلها وعاد إلى المغرب الأوسط ليكمل فيه ما تبقى له من عمره [23]

أما مقطوعته فهي من خمسة أبيات يقول فيها [24]

وحاكية بالماء لون اضطرابه قواما وحسنا حين يبدو ويومض [25]
قضيب لجين ألمع الصقل متنه وأخلعه في السبك من قبل مخلص
تسامي قليلا ثمّ عاد كأنّه جمان حواليها على الماء يرقص
تضايق أعناق السماء [26] كأنّه لها بين هاتيك النجوم تلصّص [27]
كأنّ نوالا من يمين كرامة يمدّ به إذ لا نرى الماء ينقص [28]

عمد عبد الله القلعي هنا إلى استعمال تشبيهات أربعة سمت بالصور وغذّتها أفضل غداء وقد صيغت الجمل والتراكيب في تسلسل منطقي، وتعدد ت الألفاظ الرّقيقة الموحية، وهو بذلك لا يخرج عن طريقة ابن حمديس في الوصف واستشفاف

سحر المحسوسات والمعنويات باستعمال الأساليب البلاغية وإخضاع الألفاظ الجزلة والمعاني الدّقيقة للخيال الخصب.

ولابن حمديس في إحدى قصائده التي وصف فيها قصور المنصور وقفة شعرية أمام بركة بدت مثيرة من خلال أوصافها وإن اكتست بثوب المبالغة:

في بركة قامت على حافاتها أسد تذلّ لعزّة السلطان
وكأنّ برد الماء منها مطفىء نارا مضرمة من العدوان
وكأنّما الحيّات من أفواهها يطرحن أنفسهنّ في الغدران
وكأنما الحيتان إذ لم تخشها أخذن من المنصور عقد أمان [29]

وحقّ لأهل المغرب الأوسط أن يتعبدوا لهذا الجمال في أوطانهم، فانّ هذا الصقع الجميل المخصاب لجدير بأن يمتلك القلوب ويستهويها إلى يومنا هذا، وكم نأسف لما حلّ بتراثنا العمراني من قصور ومدائن جار عليها الزمان وامتدّت إليها عوادي الدهر لتسلبها منّا، فقد زحفت إليها يد الخراب والزّوال فامّحت معالمها وعفت رسومها.

هوامش و إحالات

(1): أحمد حسن الزّيات ،تاريخ الأدب العربي ، ط25 ،ص318.

(2): المصدر نفسه ،ص335

(3):قصر الملك قصر من قصور القلعة ،بجدّك ك: برعايتك ، وفي رواية أخرى بمجدك .

(4):الدبران :منزلة من منازل القمر

(5):الخورنق والسدير والإيوان :قصور بني ساسان . فضح: أعلن ، وفي رواية أخرى فصح

(6):اقتباس من الآية 20من سورةالأنسان.في قوله تعالى:" وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيما وملكا كبيرا "رواية حفص.

(7) :شعراء الجزائر على عهد الدولة الحمادية، ص 47.46

(8): احمد حسن الزيّات ،تاريخ الأدب العربي ،ص 336

(9): بحر الكامل.

10) : د.رشيد بورويبة،وأصحابه ؛ الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي، ج 3 الجزائر 1984 ص.245

11:مارون عبّود، أدب العرب، ط 3 ،دار الثقافة بيروت ،1979.1978 ، ص 246 .

12: المصدر نفسه، ص247

13: مصطفى ناصف ، الصورة الأدبيّة ، دار الأندلس ،بيروت الطبعة 3، 1983 ،ص5

14بطرس البستاني ،أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ،بيروت 1937 ،ص28

15عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ص296

16العروسين: قصر بناه الناصر ابن علنّاس ابن حمّاد في القلعة ، وفي رواية: العروسان .

17: بلارة هي ابنة تميم ابن المعزّ. تزوّجها الناصر ابن علنّاس سنة 470 وبنى لها هذا القصر الّذي حمل اسمها، في القلعة ومعناه: البلور

18: قصر الكوكب بناه المنصور ابن الناصر ابن علناس

19: التدل بمعنى الوسخ

20:آبرة: لعلّها من أبر الأثر

21:ابن عذارى،البيان المغرب،القسم الثالث،تحقيق هويسي ميرندا وغيره،الرباط،1963ص309

22:عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ص297.

23)أحمد بن محمّد أبو رزّاق،الأدب في عصر دولة بني حمّاد ،ط1،الجزائر، 1979،ص242.

(24): بحر الطويل.

25: يومض: يضيء ويلمع.

(26):أعنان السماء: نواحيها وما اعترض من أقطارها

27):تلصّص: ترصّص وتلاصق

(28):أحمد بن محمد أبو رزّاق: الأدب في عصر دولة بني حمّاد، ص 248.

(29) :شعراء الجزائر على عهد دولة بني حماد ،ص51